

أهل كتاب، وأهل علم، وفيهم إيمان، إلا أن الله سلب عليهم هذا  
الذي لا يعرف الله؛ لأنهم تركوا أمر الله سبحانه وتعالى، فسلط الله  
المجرمي عدداً ملحداً كافراً، مع أنهم أهل إيمان وأهل دين، لكن لما تركوا أمر  
عليهم عداً، سلط الله عليهم هذا الكافر.

فإذا كان الناس على دين وصلاح؛ يسر الله لهم من الولاية من فيه خير  
وفيه صلاح، وإذا كان الناس على فساد ومعصية؛ سلط الله عليهم من الولاية  
من يسوؤهم سوء العذاب، وقد جاء في الأثر: «كُنَّا نَكُونُوا يُرَىٰ عَلَيْهِمْ» (١).  
ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّدُ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

فصلاح ولاية الأمور رحمة للرعية، وظلم ولاية الأمور عقوبة على الرعية.  
فالواجب على الناس أن يتضرعوا إلى الله، وأن يتوبوا إلى الله؛ حتى يصلح لهم  
ولا يهزم وديعتهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا جَعَلَ أَمْرَهُمْ إِلَىٰ سُوءِهِمْ﴾، فيجعل  
أموالهم بأيدي السفهاء، الذين يدخلون بها، ويضنون بها على الخير، ويتشاغلون  
بالربا وأكل أموال الناس بالباطل، أما إذا أراد بهم خيراً جعل الأموال بأيدي  
السحاء الذين يشفقونها في سبيل الله، ويساعدون بها المحتاجين.

فالسلاطين يسلطهم الله على العباد بذنوبهم، فإذا منعوا الزكاة، وتعاملوا  
بالربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، ابتلوا بشدة المؤونة، وجور السلطان، ولو

(١) أخرجه ابن جميع في معجم الشيخ (ص ١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/٣٣٦) عن  
أبي بكر بن علقمة، رفعه. قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٥٢٠): «في سنده مجاهيل».

وتخفى في الأرض، فما علامة غضبك من رضاك؟ قال: إذا استعملت عليكم  
خياركم فهو من علامة رضائي عنكم، وإذا استعملت عليكم شراكم فهو من  
علامة سخطي عليكم» (١).

وذكر ابن أبي الدنيا عن الفضل بن عياض قال: «أوحى الله إلى بعض  
الأنبياء: إذا عصاني من يغفري سلطت عليه من لا يغفري» (٢).

وذكر أيضاً من حديث ابن عمر يرفعه: «والذي نفسي بيده، لا تقوم  
الساعة حتى يمتك الله أمراء كذبة، ووزراء فجرة، وأعداء خونة، وعرفاء  
ظلمة، وقراء فسقة، يستأثم بساتر الرهبان، وقلوبهم آتت من الجيف، أهواؤهم  
مختلفة، يفتح الله لهم فئة غيرة مظلمة ينهاكون فيها، والذي نفس محمد بيده  
لينقص الإسلام عروة عروة، حتى لا يصال: الله الله، كأمور بالمعروف،  
ولتنهون عن المنكر، أو يسلطن الله عليكم أشراركم، فيسوءواكم سوء  
العذاب، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم. كأمور بالمعروف، وتنهون عن  
المنكر، أو يمتن الله عليكم من لا يؤحم صغيركم، ولا يؤمر كبيركم» (٣).

الشرح:

(يختصم) هذا ملك الفرس، سلطه الله عز وجل على بني إسرائيل، مع

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد على الزهد (١٥٨٢)، وابن أبي الدنيا في

العقوبات (٣٢).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٤).

وَفِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:  
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا طَقَفَ قَوْمٌ كَيْلًا، وَلَا بَحَسُوا مِيزَانًا، إِلَّا  
مَتَّعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَطْرَ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الزَّنَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الزُّنَى، وَمَا ظَهَرَ  
فِي قَوْمِ الرِّبَا إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُودَ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الْقَتْلِ - يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ  
بَعْضًا - إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ عَدُوَّهُمْ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ عَمَلٍ قَوْمٌ لَوْ لُوطٌ إِلَّا ظَهَرَ  
فِيهِمُ الْخُسْفَى، وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا تَرَفَعَ  
أَعْيُنُهُمْ وَلَمْ يَسْمَعْ دُعَاؤُهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ  
زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعِيدٍ، بِهِ<sup>(٢)</sup>.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ عُزْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ  
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حَفَرَهُ النَّفْسُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنْ قَدْ حَفَرَهُ  
قَتْلُهُ، ثُمَّ تَكَلَّمَ حَتَّى تَوَضَّأَ، وَخَرَجَ، فَلَصِفْتُ بِالْحُجْرَةِ، فَصَدَّ الْمَيْزُ، فَحَمِدَ اللَّهُ  
وَأَتَيْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَكُمْ: مَرُوا بِالْمَعْرُوفِ  
وَانْتَهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبُكُمْ، وَتَسْتَضِرُّونِي فَلَا أَنْصُرُكُمْ،  
وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ»<sup>(٣)</sup>.

(١) لم أقتض عليه في المطبوع من معاجم الطبراني الثلاثة.

وأخرج الطبراني في الكبير (١٠٩٩٢) من طريق عبد الله بن كيسان، عن الضحاك بن

مزامح، عن مجاهد وطاوس، عن ابن عباس، فذكر نحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٩/٦)، وابن ماجه (٤٠٠٤).

كانوا أهل علم ودين وكتاب، كما سَلَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ المَجُوسَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ  
عَقُوبَةً لَهُمْ.  
وما هو مشاهد في هذا الزمان في كثير من البلدان من الجور والظلم،  
وتشريد المسلمين، وتشريد الصالحين، وتولي الظلمة عليهم، إنما هو بسبب  
الذنوب والمعاصي، سَلَطَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَقُوبَةً لَهُمْ.



وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَتَلَوْنَ هَذِهِ آيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَصْعَقُونَ بِهَا عَلَى غَيْرِ مَوْضِعِهَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَالِمُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلُّ إِذَا أَهْتَكَيْتُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوْا الْمُكْذِبَ فَلَمْ يَنْعَرَوْهُ - أَوْسَكَ أَنْ يَعْصِمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عَذَابِهِ» (١).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا أَخْفَيْتِ الْخَطِيئَةَ أَوْ تَصَرَّ إِلَّا صَاحِبَهَا، وَإِذَا ظَهَرَتْ فَلَمْ تُغَيِّرْ صَرَّتِ الْعَامَّةُ» (٢).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَوْبَتُكَ الْفَرَسُ أَنْ تُخْبِرَ وَهِيَ عَامِرَةٌ، قِيلَ: وَكَيْفَ تُخْبِرُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا فُجَارُهَا أَبْرَازُهَا، وَسَادَ الْقَبِيلَةَ مَنَاقِبُهَا» (٣).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ حَسَّانَ بْنِ عَطِيَّةٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَيُظْهِرُ بَرَاءُ أُمَّتِي عَلَى خِيَارِهَا، حَتَّى يَسْتَخْفِيَ الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ كَمَا يَسْتَخْفِي الْكُفَّارُ فِيْنَا الْيَوْمَ» (٤).

(١) أخرجه أحمد (٧، ٢/١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٠)، والطبراني في الأوسط (٩٤/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٤)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٧٩٩/٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٥)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن

وَقَالَ الْعَمَرِيُّ الرَّاهِدُ: إِنَّ مِنْ عَقَلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ تَرَى مَا يُسَخِّطُ اللَّهَ، فَتَجَاوِزَهُ، وَلَا تَأْمُرَ بِهِ، وَلَا تَنْهَى عَنْهُ، خَوْفًا مِنْ لَا يَمْلِكُ لِنَهْيِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.  
وَقَالَ: مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ تَخَافَةً مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، تُوِغَتْ بِهِ الطَّاعَةُ، وَلَوْ أَمَرَ وَلَدُهُ أَوْ بَعْضُ مَوَالِيهِ لَا مَسَخَفَ بِحَقِّهِ» (١).

الشرح:

هذا يدل على أن كل جريمة لها عقوبة، وأن العقوبات إنما سببها الذنوب والمعاصي والكفر والفسق، وأن الناس إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يُجِبَلْ دعائهم.

وكذلك من يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من الناس تحمل به العقوبة، وإنكار المنكر حسب الاستطاعة، وأقل شيء أن ينكره بقلبه، فيبغض المنكر وأهله، ويتعبد عنهم، وأعلى شيء أن يزيله بيده إن كان له سلطة، أو بلسانه إن لم يكن له سلطة ولكن عنده علم ومعرفة، فيعظ وينصح ويبين للناس. فإن كان بيده سلطة ويستطيع أن ينكره بيده، أو يستطيع أن ينكره بلسانه لأنه عنده معرفة وبيان، ولكنه ترك الإنكار خوفاً من الناس، فهذا تحمل عليه العقوبة، أما إذا كان لا يقدر فيبقي الإنكار بالقلب، والإنكار بالقلب لا يقدر أحد أن يمنعه منه أبداً؛ لأن الناس ما يدرون عن قلبه.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٨)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤).



فَلَا تَخْشَى أَنْ لَا أُخْرِجَ مِنْ صُلْبِكَ صُلْبًا أَبَدًا، مَا كَانَ عَقَبُكَ لِئَلَّا تُلْتَئِقَ  
بِهَلَا يَابَنِي،<sup>(١)</sup>

### الشرح:

قد تترك بعض الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويستأجل يقول  
الله تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ عَاقَبُوا عَلَىٰ نَكُتٍ أَنفُسُهُمْ لَا يَخْشَوْنَ  
قَوْلَ إِذَا أُذُنُهُمْ﴾، ويقولون: ما عليّ إلا من نفسي، ولا عليّ من الناس، وولن  
يخبرني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن أصابحت نفسي!

وهذا فهم الآية على غير معناها؛ لأن الله تعالى يقول: لا تأمروا  
بالمعروف وتنهوا عن المنكر، بل قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾، أي: أصلحوا  
أنفسكم أولاً، ولا تنظروا إلى الناس، كأن يقول في المعاصي والذنوب: هذا  
شيء عليه الناس، وأنا أفعل مثل ما يفعل الناس!

فكل واحد مأمور بأن يصلح نفسه ولا يغتر بما عليه الناس، لكن لا يترك  
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب استطاعته؛ لأن الله تعالى قال:  
﴿إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾، ولا يكون مهتدياً إلا إذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن  
المنكر حسب استطاعته.

فالآية ليس فيها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما فيها أن  
الإنسان لا يغتر بأفعال الناس، ولا يجارهم ويمشي معهم على ما هم عليه ما

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٢٤).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَوْمَئِذٍ قَالَ: «يَأْتِي زَمَانٌ يَذُورُ  
فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَمَا يَذُورُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ»، قِيلَ: مِمَّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِمَّا  
يَرَى مِنَ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهُ»<sup>(١)</sup>.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ  
قَوْمٍ يَعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، وَهُمْ أَغْرَ أَكْثَرُ مِنْ يَعْمَلُهُ، فَلَمْ يَتَغَيَّرُوا، إِلَّا عَقَبَهُمُ  
اللَّهُ بِعِقَابٍ»<sup>(٢)</sup>.

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَسَمَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ  
ﷺ يَقُولُ: «لِحَاءُ الرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَتَلَقَّى أَفْئِدَتُهُ فِي  
النَّارِ، يَذُورُ كَمَا يَذُورُ الْحِجَارُ بِرَحَاءِ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فَلَانٍ  
مِمَّا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ  
أَتُؤَمَّرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا أَتِيهِ وَأَتُؤَمَّرُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَتِيهِ»<sup>(٣)</sup>.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «كَانَ خَبْرٌ مِنْ أَجْبَارِ يَنْبِي  
إِسْرَائِيلَ يَخْشَى مَنَزِلَةَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَيَعْظُمُهُمْ وَيَذْكُرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَرَأَى  
بَعْضُ نَبِيٍّ يَوْمًا يَغْيِرُ النِّسَاءَ، فَقَالَ: مَهْلًا يَا بَنِيَّ، مَهْلًا يَا بَنِيَّ. فَسَقَطَ مِنْ سُرُورِهِ،  
فَانْقَطَعَ لِحَاؤُهُ، وَاسْقَطَتِ امْرَأَتُهُ، وَقِيلَ لَهَا: فَأَرْسَى اللَّهُ إِلَيْ نَبِيِّهِمْ: أَنْ أَخْبِرُ

(١) (٧٩٨/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٦)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٤/٤)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٠٠).

الناس وينهى الناس.

وقوله: (أَتَى لَا أُخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صَدِيقًا أَبَدًا)، ذلك لأنه تساهل في الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر؛ رأى ابنه على معصية فتساهل، وقال: (مَهْلًا يَا

بَنِيَّ)، ولم يأخذ على يده ويمعنه، وهو يستطيع أن يغير بيده - لأن له سلطة

النأديب على ولده - واقتصر على الكلام فقط.

الذنوب والمعاصي، بل عليه أن يلزم نفسه ويصلحها، وينكر ما ظهر من

المعاصي قدر استطاعته، أما إذا كانت المعاصي خفية فإنها لا تنصر إلا أصحابها،

فإذا جهروا بها ولم تُنكر؛ عمت عقوبتها المعاصي والساکت عن الإنكار.

وقوله: (عَمَّا يُؤْذَى مِنَ النُّكْرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرُهُ) إذا كان العبد يتحسر إذا

رأى المنكر وهو لا يستطيع أن يغيره، فهذا دليل على الإيمان، لكن إذا صار لا

يتحسر ولا يحرك فيه ساكنًا، فهذا دليل على الشقاء والعياذ بالله، ولذلك قال:

(يُؤْذَى فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ) أي: القلب الذي فيه إيمان.

أما الذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا قلبه ليس فيه

إيمان؛ لقول النبي ﷺ: (مَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ

ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ) <sup>(١)</sup>.

وقوله: (وَهُمْ أَعْرَضُوا عَنْ يَوْمِهِمْ)، يعني: لديهم القدرة على إنكار

المنكر، (فَلَمْ يَغْيِرُوهُ) أي: تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم

يقدرُونَ (إِلَّا عَنْهُمْ اللَّهُ بِعِقَابٍ).

وقوله: (فَتَذَلِّقُ أَفْئِدَهُ فِي النَّارِ) يعني: أعضاؤه، وهذا وعيد للذي يأمر

الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهو لا يعمل بذلك في نفسه، فلا بد أن

يعمل بنفسه أولاً، فيترك المنكر ثم ينهى عنه، ويفعل الخير ويأمر به، ولا يكون

كمن قال الله جلَّ وعلا فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ

وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ لَنْ نَكْتَبَ أَفْئِدَةً بِإِذْنِ اللَّهِ عِزِّ جَلِيلٍ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥]. بل يبدأ بنفسه قبل أن يأمر

(١) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.



وَفِي الْحَلِيَّةِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ، لَا تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَكَأَنَّ بَيْعَ الذَّنْبِ أَكْثَرُ مِنْ الذَّنْبِ إِذَا عَمِلْتَهُ قَلَّةَ حَيَاتِكَ مِنْ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشَّامَلِ - وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ - أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَصَحَّحَكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَقَرُّ حُكِّكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَحُزْنُكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذَا قَاتَكَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَخَوْفُكَ مِنَ الرَّيحِ إِذَا حَرَّكَتَ سِرَّ بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَا يَضْطَرُّ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَنَحْكُ! هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ فَأَنْتَ بِالْبَلَاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ؟ اسْتَغَاثَ بِهِ مُسْكِينٌ عَلَى ظِلِّ يَدْرُؤُهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُعْنِهِ، وَلَمْ يَنْتِ الظَّالِمُ عَنْ ظُلْمِهِ، فَأَنْتَ اللَّهُ!»<sup>(١)</sup>

## الشرح:

هذه الأحاديث والآثار تدل على أنه لا يجوز التساهل في الذنوب، فإن الذنوب معصية ومخالفة لأمر الله سبحانه وتعالى، وإذا اجتمعت على العبد - ولو كانت يسيرة وصغيرة - صارت كبيرة، فتهلكه وتجره إلى الكفر؛ لأنه إذا تساهل بالشئ اليسير تساهل بالشئ الكبير، وإذا عظم الشئ الصغير عظم الكبير. فعلى العبد ألا يتساهل بالذنوب والمعاصي مثل ما نسمع عن بعض الناس ممن يتساهلون في الذنوب ويستخفون بها، ويظنون أنها شئ يسير، وهي عند الله كبيرة: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]، فنبو

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٢٤).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّا كُنَّا وَنَحْمُرَاتِ الذُّنُوبِ، فَأَتَيْنَا نَجْمِيغِينَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَمْلِكْنَاهُ. وَإِنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ كَهْنٌ مَثَلًا: «كَمَلِ الْقَوْمَ تَزَلُّوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَخَضَرَ صَبِيغُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى يَجْعُوا سَوَادًا، وَأَجْبُوا نَارًا، وَأَنْصَحُوا مَا قَدَفُوا فِيهَا»<sup>(١)</sup>. وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «لَكُمْ أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَقْبَى فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، وَإِنْ كُنَّا تَعْلَمُهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْمَوَاقَاتِ»<sup>(٢)</sup>.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتِ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا، وَلَا تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»<sup>(٣)</sup>.

وَفِي الْحَلِيَّةِ لِأَبِي نَعِيمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَزَكَّيْتُ بِسُوءِ إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَمُرُوا بِشَيْءٍ تَرَكَوْهُ، وَإِذَا نُهُوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ<sup>(٤)</sup>.

وَمِنْ مَاهَمَاتِ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبْلَةَ بَرِيدُ الْجَمَاعِ، وَالْعَفَاءُ بَرِيدُ الزُّنَا، وَالنَّظَرُ بَرِيدُ الْعَيْشِ، وَالرُّضُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

(١) تقدم تخريجه (ص ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٢٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٧٩).

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: «لَا تَنْظُرُ إِلَى صَغْرِ الْخَطِيئَةِ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ»<sup>(١)</sup>. وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ عِيَّاضٍ: يَقْدِرُ مَا يَصْغُرُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ<sup>(٢)</sup>.

وَيَقْدِرُ مَا يَعْظُمُ عِنْدَكَ يَصْغُرُ عِنْدَ اللَّهِ<sup>(٣)</sup>.

وَقِيلَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِبْلِيسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا أَحَدُ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْأَمْوَاتِ<sup>(٤)</sup>.

وَفِي الْمُسْنَدِ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي مُرَيْزَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نَكَبَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْبَةً سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ وَتَوَضَّعَ وَاسْتَغْفَرَ صُفِّلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَمْلَأَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: «كَلَّا بَلْ عَلَى فُلُوسِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»<sup>(٥)</sup>. [الطَّبْفِين: ١٤، ١٥]. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ حَذْفِيَّةٌ: «إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ نَكَبَتْ فِي قَلْبِهِ نَكْبَةً سَوْدَاءٌ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ كَالنَّشَاءِ الرَّيْدَاءِ»<sup>(٥)</sup>.

- (١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد على الزهد (٢٢٦٧)، وابن المبارك في الزهد (٧١)، والسنائي في الكبرى (٤٠٥/١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٨/١).
- (٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٠/٩).
- (٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٤٢) عن مسروق بن سليمان.
- (٤) أخرجه أحمد (٢٩٧/٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٥٦٢/٢).
- (٥) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٧١)، وأبو بكر الخلال في السنة (٥٥/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٧٤/٩).

إسرائيل إني هلكوا بهذا السبب، كانوا يتساهلون في المخالفات والذنوب وما زالوا كذلك حتى وقعوا في الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، يعني: توصل إلى الكفر.

وتلك المرأة التي دخلت النار في هرة؛ كانت عندها شيئاً سهلاً، فحبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تطلب الرزق، فدخلت النار بذلك. وهذا في قتل هرة، فكيف بالذي يقتل نفساً مؤمنة؟! وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا [النساء: ٩٣].

بينما المرأة البغي التي كانت تستعمل الزنا، ثم رأت كتاباً يلهث من شدة العطش، فسقته، فغفر الله لها.

فلا يتساهل فيه المعاصي ومخبرات الذنوب، وكذلك الحسنة لا تستصغر، فالحسنة - ولو كانت بسيرة - يضاعفها الله جلاً وعلاً، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا عَلَى خَسَّةٍ لِيُضْعِفَهَا﴾، يعني: ولو كان مثقال الذرة حسنة فإنه يضاعفها ﴿وَيُؤْتِي مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].



وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن عبيد الله بن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أما بعد يا معشر قريشي، فإنكم أهل هذا الأمر، فامتنعوا من الدنيا فحسبكم من يأخذكم بها نفس هذا القهيب» - القهيب في لغة قريشية فلان هو أبيض بضمد<sup>(١)</sup>.  
وذكر الإمام أحمد: عن وهب أن الثوب حكيم قال في بعض ما يقول النبي إنريال: «إني إذا أظفرت رخصيت، ولذا رخصيت تارخت، وليس لبرخي بها، ولذا فحسبت لخصيت، ولذا فحسبت لخصيت، ولعنتي تبلى السابغ من الولد»<sup>(٢)</sup>.

الشرح:

قوله: (تحت حلقكم من بياضكم)، أي: يغلب عليكم وبياضكم، فالإنسان لا يعتمد على نسبه وعلى شرفه، فإن الله هلك الطماعة ولو كانوا من أشرف الناس، فهذه قريش قبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم أشرف قبائل العرب، إذا عصوا الله فإن الله يهلكهم فقال يتكلم منهم ولا يفتخهم بنسبهم.  
وهذا أبو لهب أنزل الله فيه قرآناً ينزل إلى يوم القيامة، وما نفعه أنه من قريش، ولا أنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.  
وقوله: (ولعنتي تبلى السابغ من الولد)، هذا وعيد شديد، إن الله على الخلا يوهي إذا أطيع، ويذهب إذا عصي، وإن المائدة تلو حتى على ذرية العاصي، وهذا من دعاء المعاصي والعباد بالله.

(١) أخرجه أحمد (١٠٥٨٧).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٢٨٩).

الشرح:  
قوله: (تحت من فضيت)، هو الله تعالى تبارك وتعالى فلا تنظر إلى أن هذا صفة وهذه صفة، بل انظر إلى أنها صفة له تعالى.  
قوله: (عن السلام أن عظم أدم الله وهو هبة)، أي: كان ومن عظمه خذ من الله فهو خذ من عظمه، وقوله: (الشرح)، أي: لا يملك ومن عظمه شعير الله فليها من عظمه القلوب، أي: العجز، وقوله: (عن السلام أن عظم أدم الله وهو هبة، ولا يتسائل).  
وقوله: (إن أكل من ذلك من عظمي الجش)، يعني: الذي يعني الله بعون قومه وإن لم يمت حسنة، وموت القاب عظم من موت الجسد، قال الله تعالى: «لأن كل ميتا فأنه ميتا»، أي: لأن كل ميتا ميتا بالكلية، والحياء الله لا يتسائل بالكلية، معنى الإيمان به، ومعنى الكفر بموته، قال صلى الله عليه وسلم: «إن عظمي يروح الجسد، يكون بعون القاب، وهم الأعداء».  
وقوله: (تحت في قلوبهم خطية من ذلك)، لأن الذنوب تؤثر في القلوب حتى يجرى لهم لما في قلوبهم من ذلك، ويؤثر في قلوبهم، فكل من تحت قلوبهم خطية، ثم عظم هذه الخطية حتى تغطي على القاب، وهذا هم الران الذي قاله الله عليه: «لأن كل من خطية قلوبهم قسا كالسوا يستسبون».  
وقوله: (تلك التي لا تملك)، يعني: السواد.



وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لَا يَبْدُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَ الدَّيْنُ غَتَمَ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنِّي لَا عُرْفَ هَذَا النِّعَمِ يَذَلُّ بِأَصْبَتِهِ مِنْهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»<sup>(١)</sup>.

وَهَاتُمَا نَكْتَةً دَقِيقَةً يَغْلُطُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَتَوَرَّونَ تَأْيِيدَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُونَ تَأْيِيدَهُ فَيَنْتَسِي، وَيَنْظُرُ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يَتَغَبَّرْ حَاسِطٌ فِي وَقُوعِهِ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ عُسَارٌ  
وَسُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أَهْلَكَتَ هَذِهِ النُّكْتَةُ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَزَالَتْ مِنْ نِعْمَةٍ؟  
وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ؟

وَمَا أَكْثَرَ الْمُتَعَتِّينَ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَالْفُضَلَاءُ، فَضَلَّ عَنْ الْجَهَّالِ! وَلَمْ يَعْلَمْ الْمُتَعَتِّ  
أَنَّ الذَّنْبَ يَقْتَضِ وَلَوْ بَعْدَ حِينَ، كَمَا يَقْتَضِ السُّمُّ، وَكَمَا يَقْتَضِ الْجُرْحُ التَّدْبِيلَ عَلَى  
الْفَيْسِ وَالِدَعْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعُدُّوا  
أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِيكُمْ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِمُكُمْ، وَاعْلَمُوا أَنَّ  
الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى»<sup>(٢)</sup>.  
وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَادِ إِلَى صَبِيٍّ، فَتَأَمَّلَ تَحَاسُّسَهُ، فَأَتَى فِي مَنَامِهِ، وَقِيلَ لَهُ:  
لَتَجِدَنَّ عِندَهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً<sup>(٣)</sup>.

(١) لم ألق عليه في المطبوع من الزهد للإمام أحمد، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/٢٧١).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧١٦).

(٣) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٩/٨٤) عن أبي عبد الله بن الجلاء، وأنه بسببها نسي

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكِيعٍ، حَدَّثَنَا زَكْرِيَّا، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى مُعَاوِيَةَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِلَهُ مِنَ النَّاسِ دَانًا»<sup>(١)</sup>.

وَذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «لَيَسْخَرَنَّ امْرَأَةٌ أَنْ تُلَاقِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ فَيُلْقِي اللَّهُ نِعْمَةً فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْمَعُونَ»<sup>(٢)</sup>.

الشرح:

كذلك من أضرار المعاصي أن الله يلقي على أهلها البغضاء في قلوب الناس فيبغضونه؛ لأن الناس - كما هو معروف وظاهر - يحبون أهل الطاعة وإي الذين آمنوا وعملوا الصالحات - سيجعل لهم الرحمة ودا [مرسوم: ٩٦]؛ لأن الله يحبهم في السماء ويحبهم الملائكة، ثم ينزل لهم القبول في الأرض، وإن لم يكن عندهم مال ولا يعطون الناس شيئاً، لكن يحبونهم من أجل الطاعة، بخلاف العاصي، فإن الله يلقي بغضه في قلوب الناس فيبغضونه ويصبح ذليلاً، ولذلك تجد العصاة ذليلين حتى وإن كانوا كباراً في مناصبهم أو نسبهم، يجعل الله ذل المعصية على وجوههم.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٩١٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢١٥/١)، كما أخرجه أحمد في الزهد (٧٦٦) مختصراً.

العبد الذنب فإن الله لا ينساه.

قوله: (فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْقُورُوعِ عَنَابٌ)، فالعبار إنما يكون وقت السقوط، أما

إذا سقط يروح العباد.

وقوله: (لَتَجِدَنَّ فِيهَا بَعْدَ أَزْعَاجِنَ سَنَةً)، وهذا في نظرة واحدة إلى ما حرم

الله، فكيف بمن يطيل النظر إلى الحرامات؟!.

وقوله: (هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ) فرق بين يُشْمِتُ وَيُسَمِّتُ، يُسَمِّتُ

يعني: يشمت العاطس ويقول له: يرحمك الله، وأما يُشْمِتُ فمعناها: أنه يشنع

عليه.



هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ تَقْدًا مُعْجَلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سَلِيمَانُ التَّيْمِيُّ: إِنَّ

الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السَّرِّ فَيُصِيبُ وَعَلَيْهِ مَثَلُهُمْ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِيُّ: «عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلِ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ

لَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ»، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟

قَالَ: «يُعْطِي اللَّهُ قُشْمِيَّتَ بِي فِي الْقِيَامَةِ كُلِّ عَدُوٍّ»<sup>(٢)</sup>.

الشرح:

قوله: (وَيَطْلُقُ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْزَرُ بَعْدَ ذَلِكَ)؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قد يمهّل

العاصي، فيظن العاصي أنه قد غفر له، وأن الله لن يعاجله بالعقوبة، وهذا من

مكر الله به، من أجل أن يزداد من الذنوب. وبعض الناس إذا ما نزلت به

العقوبة سريعة يتساهل في الذنب ويقول: لو كان شيئاً مهماً لصار له عقوبة،

فالله جَلَّ وَعَلَا يمهّل العاصي، ثم يأخذه على غرة.

فلا يتساهل الإنسان بالذنب، ويستبطع العقوبة، فإن العقوبة قد تتأخر.

وتصير أعظم مما لو عجلت، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا

فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿[

المجادلة: ٦]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحصي عليهم أفعالهم، ولكنهم نسوها، فإذا نسي

القرآن.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا العقوبات (٦٧)، وفي التوبة (١٩٥).

(٢) لم أقف عليه مستنداً.



وعلى الأبدان: بالأمراض والاستقام والأفات، وعلى الأوطان: في شمع المياه، وانجاس الأمطار، وإصابة الشار بالأفات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ فِي الْغَمَامِ الْبَرَقَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ نَعَضَ الدَّيَّةِ الَّذِي عَمِلُوا أَفْسَادًا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم: ٤١].

تَلَمَّه تَزَجُّونَ ﴿[الروم: ٤١].  
قوله: ﴿قَمِينًا: جِزْمَانُ الْعِلْمِ﴾، بسبب المعاصي يحرم صاحبها من العلم النافع؛ لأن العلم نور، وهذا النور إنما يحصل لأهل الإيمان وأهل الطاعة، فلا يحصل لأهل المعاصي، وإن تعلموا بالسنتهم فإنهم يحرمون من العلم في القلوب؛ لأن العلم قسمان: قسم على الألسنة، وهذا يكون مع الشافقين وأهل الضلال، بل ويكون مع الكفار أيضًا. وعلم بالقلوب، وهذا لا يُعطاه إلا أهل الإيمان، وأهل اليقين، وأهل الخشية، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. هذا هو العلم النافع.

ومن ذلك هذه الآيات المذكورة عن الإمام الشافعي رحمه الله، قال: ﴿شَكَرْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي﴾ وكيع هو شيخ من مشايخ الإمام الشافعي. وقد كان رحمه الله يجلس يتلقى العلم على الإمام مالك رحمه الله، ويروي عنه الموطأ، فكان يحفظ ما يسمع بسر عة، وكان شابًا صغيرًا، فتعجب منه شيخه الإمام مالك، فأوصاه بهذه الوصية، وقال له: ﴿إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ آتَى عَلَى نَبْلِكَ نُورًا، فَلَا تُظْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْغَضَبِ﴾.

وَالْمَعَاصِي مِنَ الْأَفْئَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ وَالْمُصْرَةِ بِالْقَلْبِ وَالْبَدَنِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يُنْقِئُهُ إِلَّا اللَّهُ.

قَمِينًا: جِزْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْغَضَبُ يُظْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

وَكَيْفَ جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَحَبَّهُ مَا رَأَى مِنْ نُورٍ فُطِنَ بِهِ، وَتَوَقَّدَ ذَكَائِهِ، وَكَتَالَ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ آتَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُظْفِئْهُ بِظُلْمَةِ الْغَضَبِ<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ<sup>(٢)</sup>:

شَكَرْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي  
وَفَضَّلُ اللَّهَ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِرٌ

الشرح:

لَمَّا ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ آثارَ المعاصي الكثيرة، وتحذير السلف منها؛ أجهلها في هذه الكلمة، فقال: ﴿وَالْمَعَاصِي﴾ يعني: لها غير ذلك ﴿مِنْ الْأَفْئَارِ الْقَبِيحَةِ الْمَذْمُومَةِ﴾، فآثارها كثيرة على القلوب: فهي تقسي القلوب وتعميها وتعمر ضها،

(١) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (١/٢٩٩)، ولم أقف عليه مستندًا.

وذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق (٥١/٢٨٦) أنه قال له: «يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن».

(٢) ينظر: ديوانه (ص ٨٧).

وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْجِبًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَغُضِّ السَّلَفِ: «إِنِّي لَأَغْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِي دَائِي»

وَالْعَرَبِيُّ<sup>(١)</sup>.

الشرح:

ومن آثار المعاصي أن يُحرم العاصي الرزق، كما في الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»، وهذا في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِيسَ كَذِبِهِمْ﴾ فَأَخَذْتَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿الأعراف: ٩٦﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِحْسَانَ لَأَنْزَلْنَا إِلَيْهِم مِّن رَّيْحِهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْثِهِمْ وَمِنْ حَتَّىٰ أَرْجُلِهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٦٦].

وقوله: (تَقْوَى اللَّهِ مَجْلِبَةً لِلرِّزْقِ) كما في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطَّلَق: ٢، ٣]، فتقوى الله سبب للخروج من الشدائد، وسبب لجلب الرزق، والمعصية بالعكس.

وقوله: (فَتَرَكُ التَّقْوَى مَجْلِبَةً لِلْفَقْرِ)، فإن قيل: أنتم تقولون هذا، فما بال الكفار بأيديهم أموال وقوة وهم كفار؟! فنقول لهم: الكفار يسترجون، وهذا استدراج من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ، وأما ما يُعطاه أهل الإيمان فإنما هو إعانة لهم على طاعة الله، وجزاء لهم على تقواهم وإحسانهم، ففرق بين

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٩/٨) من كلام الفضيل بن عياض، وللفظه: «أنا عرف ذلك في خلق حماري وخادمي».

وَمِنْهَا: جِزْمَانُ الرِّزْقِ. وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقُ بِالدَّنْبِ يُصِيبُهُ»<sup>(١)</sup>، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ، فَتَرَكُ التَّقْوَى مَجْلِبَةً لِلْفَقْرِ، فَتَمَّ اسْتِجْلَابُ رِزْقِ اللَّهِ بِمِثْلِ تَرَكِ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: وَخْشَةٌ مِثْلُهَا الْمَعَاصِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، لَا تُؤَاوِيهَا وَلَا تُقَارِبُهَا اللَّهُ أَضْلًا، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَقْبِ بِتِلْكَ الْوَخْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسِبُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا يُخْرِجُ بِمِثْلِهَا.

فَلَوْ لَمْ تَتْرِكِ الذُّنُوبَ إِلَّا حَذَرًا مِنْ وَفُوعِ تِلْكَ الْوَخْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرَكِهَا.

وَمَثَلًا رَجُلٌ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَخْشَةٌ مِثْلُهَا فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُ<sup>(٢)</sup>: إِذَا كُنْتُ قَدْ أَوْخَشْتُكَ الذُّنُوبَ فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسَ وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَخْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَإِنَّهُ الْمُسْتَعْمَانُ.

وَمِنْهَا: الْوَخْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِوَاَ أَهْلِ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ وَخْشَةَ بَيْنِهِ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلَّمَا قَوَّيْتُ تِلْكَ الْوَخْشَةَ بَعْدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مَجَالَسِهِمْ، وَحَرَّمَ بَرَكَةَ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقَوَّيْتُ مِنْ جِزْبِ الشَّيْطَانِ بِقَدْرِ مَا بَعُدَ مِنْ جِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَخْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاتِهِ

(١) تقدم تخرجه (ص ٢٩).

(٢) يُشَبِّهُ قَوْلَ سَمْنُونِ بْنِ حَمْرَةَ:

أَمْسَتْوَجُشْتُ أَنْتَ مَثًّا جَيِّسَتْ فَأَخْسِنَ إِذَا شِئْتَ وَأَسْتَأْنَسَ ذَكَرَهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي صِفَةِ الصَّفْوَةِ (٢/٤٢٨).



الحية، وإما أن يرافق أهل الشر لابد، (وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّى تَنْتَحِكُمُ) حتى إنه يستوحش من زوجته ومن أقاربه بسبب المعصية.

ولهذا يقول بعضهم: (إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خُلُقِي وَأَنِّي، وَالْمَوْتِ)، تنفر منه دابته، وتنفر منه زوجته؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: يجعل لهم محبة في قلوب الناس، بخلاف العاصي فإن الناس -ولو كانوا ينظرون بصدافته- يعضونه في قلوبهم، وينفرون منه في قلوبهم.

العطائين: عطاء أهل الإيمان، وعطاء أهل الكفر.

كذلك العاصي يجد وحشة في قلبه بينه وبين الله، ووحشة بينه وبين الناس، وتكون عليه ذلة واضحة، فلا يستطيع أن يداوم على مجالسة أهل العلم، ولا يستطيع إنه يمشي معهم، وأشد من ذلك أنه لما استوحش قلبه من الله استوحش من الناس.

ولذلك يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْعَصَاة: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَّ قَلْبُهُمْ الْيَعَالَ، وَهَمَلَتْ بِهِمُ الْبَرَائِدُ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمَعْصِيَةَ لَا يُقَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَيْ: اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مِنْ عَصَاهُ» (١)، فهم في الظاهر في عز وفي نعيم، ولكن في قلوبهم ذلة ووحشة، لا يستأنسون بها أعطوا، ولا يتلذذون بما رزقوا.

قوله: (وَمَا يَخْرُجُ بِمَيِّتٍ إِلَّا مُمْ)، يقول الشاعر (٢):

مَنْ يَمُتْ يَسْهَلُ الْخَوَانُ عَلَيْهِ وَمَا يَخْرُجُ بِمَيِّتٍ إِلَّا مُمْ

لويضرب الميت لا يحس ولا يدري، فكذلك العاصي لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتأثر بالذكر؛ لأنه ميت القلب.

قوله: (وَكُلُّهَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعْدَ مَنَّهُمْ وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ)، فلا يحب الجلوس معهم ولا يحب سماع كلامهم، ولا يحب مصاحبتهم، وإنما يصحب أمثاله من العصاة، ويأنس بهم؛ لأنه -كما قيل -: الطيور على أشباهها تقع.

وقوله: (وَقَرَّبَ مِنْ جَزْبِ الشَّيْطَانِ يَقْدَرُ مَا بَعْدَ مِنْ جَزْبِ الرَّحْمَنِ)؛ لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده، لا بد له من جلساء ومرافقين، فإما أن يرافق أهل

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٩/٢) بنحوه، وسيأتي في كلام المصنف.

(٢) البيت لأبي الطيب المشي، ينظر: ديوانه (ص ١٦٤).

بَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ومفهوم الآية: أن من لا يتق الله لا يجعل له مخرجًا من السداد والعسر والكربات.

من قوله: ﴿فَمَنْ عَظَلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهُ عُسْرًا﴾، والأشد من ذلك أنه ما يداري ما سبب تعسر الأمور عليه، وقد يلقي باللوم على غيره ويقول: هو الذي تسبب لي في ذلك العسر، ولا يفكر أن الله عز وجل هو الذي عسر أموره بسبب سلوكه ومعاصيه.

وقوله: ﴿فَقَصِيرُ ظُلْمَةِ الْمَغْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظُّلْمَةِ الْحَسِيَةِ لِبَصَرِهِ﴾، بخلاف أهل التقوى فإنهم يجدون في قلوبهم نورًا: ﴿يَنَالُهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. فتجد صاحب الطاعة على وجهه النور، والأنس في قلبه، والانشراح في صدره من آثار الطاعة، أما المعاصي فإنه يجد ظلمة في قلبه، وظلمة في تصرفاته، وهذه الظلمة تظهر حتى على لون جسمه، فتجد وجهه أسود مكثف مقطب.

ومنها: تفسيرُ أموره عليه، فلا يتوجه لامرٍ إلا يجدُه مُعَقَّلًا دونه أو مُتَعَسِّرًا عليه. وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا، فمن عطلَّ التقوى جعل له من أمره عُسْرًا.

ويقال العجب! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مستودعة عنده وطريقها معسرة عليه، وهو لا يعلم من أين أتى؟

ومنها: ظلمة يجدها في قلبه حقيقة، يحس بها كما يحس بظلمة الليل النهم إذا اذنهم، فتصير ظلمة المغصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره، فإن الطاعة نور، والمغصية ظلمة، وكلما قويت الظلمة ازدادت خبثته، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر، كأعمى أخرج في ظلمة الليل يمشي وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين، ثم تقوى حتى تغلو الوجه وتصير سوادًا فيه حتى يراه كل أحد.

قال عبد الله بن عباس: «إن للحنسة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القبر والقلب، وخنا في البدن، وتقصا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق»<sup>(١)</sup>.

### الشرح:

قوله: ﴿وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا﴾، كما في قوله الله

(١) لم ألق عليه مستندًا، وقد أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٧/٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٦/٥) عن الحسن البصري.



لن يسأل عن الدواء الشافي  
لكن ما نفعتهم قوتهم.

٢١٧

وقوة الروم والفرس، لكن ما نفعتهم قوتهم.  
ومن عقوبات المعاصي أن الإنسان يحرم الطاعة، فتجد العصاة أثقل شيء عليهم الصلاة، بل هي عندهم أثقل من الجبال، في حين أنها خفيفة على أهل الإيمان، ويجدون لها لذة وحلاوة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. أما الذي ليس في قلبه خشوع فهذا تصعب الصلاة، ويتكاسل عنها، ولا يقوم لها، وتكون ثقلة عليه.

وكم قال تَارَكَ وَتَعَالَ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطغف: ١٤]، تصبح الطاعة ثقلة عليه، وبغضه إليه، وينفر عنها غاية النفر، مثل المريض لا يستطيع أن يأكل أو يشرب، مع أن الطعام والشراب الذي في، لكنه يكون مرًا في ذوقه لأنه مريض، كذلك المعاصي تكون الطاعة عليه شاقة. فالإنسان - إن كان له عقل - بين أمرين: إما أن يكون مطيعًا، وإما أن يكون عاصيًا، أما المجنون فليس له طاعة ولا معصية.

تطبيقات على الجواب الكافي

٢١٦

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن.  
أما ومنها للقلب فامر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تُربل حياته بالكُفَّة. وأما ومنها للبدن فإن المؤمنين قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتعجزه قوته عند أخراج ما يكون إلى نفسه، وتأمل قوة أبدان فارس والروم، كيف خائفهم أخرج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإطيان بقوة أبنائهم وقُلُوبِهِمْ؟ ومنها: حرمان الطاعة. فلو لم يكن للبدن عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بذلك، وتقطع طريق طاعة أخرى، فتقطع عليه بالبدن طريق ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرا، فتقطع عليه بالبدن طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها. وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعه من عدة أكالات أطيب منها، والله المستعان.

الشرح:

من آثار المعاصي على العصاة أنها تضعف القلب والبدن، فتجد أهل الطاعات عندهم قوة في أبدانهم، وقوة في قلوبهم وعزائمهم.  
وقوله: (وَأَمَّا الْفَاجِرُ قَوَّاهُ - وَإِنْ كَانَ قَوِيَّ الْبَدَنِ - فَهُوَ أضعف شيء عند الحاجة)، القوة الإيمانية هي التي تنفع، أما قوة البدن فهذه قوة حيوانية لا قيمة لها، فم كان هناك أقوى من أبدان فارس والروم، ومع هذا كانوا أضعف في الحروب وعند اللقاء، بينما أهل الإيمان أقوى الناس عند اللقاء وعند القتال، ولذلك تغلب المسلمون على فارس والروم مع ضعف أبدان المسلمين وقتل



وَمِنْ عِلَلِ الْخَيْرِ يَحْسَبُ اسْتِغْنَاهُ بِأَصْدَادِهِ، وَذَلِكَ تَقْصِيرٌ

وَمِنْ عَمَلِهِ أَنْ يُعْمَرَ الْإِنْسَانَ مُدَّةَ حَيَاتِهِ، وَلَا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

٣٤

ومن آثار المصاحبي أنها **تُقصِّرُ المَوعِدَ وَتَمَحِّقُ بَرَكَتَهُ**، إِمَّا قِصْرًا حَسْبًا، وَإِمَّا قِصْرًا مَعْنَى، فَلَا يَجِدُ الْعَاصِي فِي عَمْرِهِ بَرَكَةً، فَيَكُونُ طَوِيلَهُ وَقِصْرُهُ سَوَاءً.

وَقَوْلُهُ: (تَقْصَانُ عُمْرِ الْمَاعِي هُوَ ذَهَابُ بَرَكَةِ عُمْرِهِ وَتَحْقُاقُهَا عَلَيْهِ) هَذَا وَاضِحٌ أَنَّ الْعُمْرَ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي الطَّاعَةِ - وَلَوْ كَانَ قَصِيرًا - فِيهِ الْبَرَكَةُ وَفِيهِ خَيْرٌ، وَأَمَّا الْعُمْرُ الَّذِي يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَاعِي فَلَا خَيْرَ فِيهِ وَلَوْ كَانَ طَوِيلًا، وَلَوْ عَمَرَ صَاحِبُهُ مِائَةَ سَنَةٍ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُودُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُوَفَّرَ لَهُ عُمْرٌ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُخْرِجِيهِ﴾ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ [البقرة: ٩٦]، فَطُولُ الْعُمْرِ أَوْ قَصْرُهُ لَا يَنْتَعِلُ إِلَّا بِإِثْرِهِ بِالطَّاعَةِ أَوْ الْمَعْصِيَةِ.

وفرق بين من يسهر الليل على الطاعة؛ من صلاة وتلاوة القرآن واستغفار، ومن يسهر الليل على هوى ولعب ومشاهدة الفضائيات والإنترنت، فهنا يكون منهك البدن، ميت القلب كسلان، وبنام عن صلاة الفجر التي هي فريضة، وذلك يقوم إلى عبادته نشيطاً، منشراح الصدر، مسروراً، ويسهل عليه القيام لصلاة الفجر، وتسهل عليه الطاعة، ففرق بين هذا وهذا، هذا استعمل عمره في الخير، وهذا استعمل عمره في الشر.

وَيَسْمَعُهَا: أَنَّ الْمَعَاصِيَ تَقْصُرُ الْعَمَلَ وَيَتَمَحَّى بِرُكْنِهِ وَلَا يَدُّ، فَإِنَّ الْبِرَّ كَمَا يَزِيدُ فِي الْعَمَلِ، فَالْفَقْرُ يَقْصُرُ الْعَمَلَ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الذَّرِيعِ، فَقَالَ طَائِفَةٌ: يُتَصَّانُ عُمَرُ الْعَامِصِيُّ مِنْكَ عَمْدًا، وَتَحْفَظُ عَلَيْهِ، وَهَذَا حَقٌّ، وَهُوَ بَعْضُ تَأْوِيلِ الْمَعَامِصِ.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلْ تُفِيصُهُ حَقِيقَةٌ، كَمَا تُفِيصُ الرُّزْقَ، فَجَعَلَ اللَّهُ مُسِيحًا لَهُ  
وَالرَّسَالَاتُ وَالشَّافِعُونَ وَالصُّعَّةُ وَالرُّضَى وَالْغِنَى وَالْفَقْرُ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَهْصَاءِ الرَّبِّ

هِيَ حَيَاةُ الْقَلْبِ، وَلَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ مَسْبَحَةَ الْكَاثِرِ مِثْقَا ذَرَّةٍ حَيٍّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى، ﴿أَمْ أَرَأَيْتَ عَذَابَ أَهْلِهَا﴾ [النَّحْل: ٢٦].

الْأَوْقَاتِ الَّتِي هُمْ حَقِيقَةُ عُمُرِهِ، وَلَا عُمُرُكَ سِوَاهَا.

وَالْجَنَّةُ، فَاعْبُدْ إِذَا أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ وَاسْتَغْلِ بِالْمَعَاصِي صَاعَتْ عَلَيْهِ أَيَّامُ  
حَيَاتِهِ الْحَقِيقَةِ، الَّتِي يَجِدُ غَيْبَ إِصْعَاعِهَا يَوْمَ يُقُولُ: ﴿يَلَايَنِي قَدْ نَسِيتُ لِحَيَاتِي﴾  
[النَّجْمُ: ٢٤]. فَلَا يَخْلُو إِذَا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعَ ذَلِكَ تَطَلُّعٌ إِلَى مَصَالِحِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ  
وَالْآخِرَوِيَّةِ أَوْ لَا، فَإِنْ يَكُنْ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ صَاعَ عَلَيْهِ عُمْرُهُ كُلُّهُ،  
وَقَدْ نَسِيتُ حَيَاتَهُ بِأَهْلِيهِ، وَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَلُّعٌ إِلَى ذَلِكَ طَالَتْ عَلَيْهِ الطَّرِيقُ بِسَبَبِ



## فصل

تعليلات على الجواب الكافي

ورمها: أَنَّ الْمُعَاصِي تَزْرَعُ أَثْمَانَهَا، وَيُولَدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى يَبْزَعَ عَلَى الْعَبْدِ مَقَارِفُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنْ مِنْ عِقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَإِنْ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا»<sup>(١)</sup>.

فَالْتِمِذُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا: اْعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتْ الثَّانِيَةُ كَذَلِكَ، وَهَلَمْ جَزَاءً، فَتَضَاعَفَ الثَّرِيحُ، وَتَزِيدَتْ الْحَسَنَاتُ.

وكَذَلِكَ كَانَتْ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمُعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحْسَ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَالْخُفُوتِ إِذَا قَارَقَ النَّهْرَ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ، وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَلَ الْمُجْرِمُ الْمُعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ، لَضَاعَفَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاعَتْ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، حَتَّى إِنْ كَثُرَ مِنَ الْفَسَادِ كَيُوقِعُ الْمُعْصِيَةَ مِنْ غَيْرِ لَذَّةٍ يَحْدُهَا، وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَحْدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمَقَارِفِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ شَيْخُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ، حَيْثُ يَقُولُ<sup>(٢)</sup>:

وَكُنَّا سِرْبَ نَبْتٍ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْنَتْ مِنْهَا بِهَا

(١) ذكره ابن تيمية في أمراض القلوب (ص ٣٩)، ونسبه إلى سعيد بن جبير.

(٢) البيت منسوب للأعشى ميمون بن قيس الشاعر الجاهلي. يُنظر: ديوانه (١٢/٢).

ولأبي نواس الحسن بن هانئ بيت في معناه، يقول فيه:  
دع عنك لومي فإن اللوم إغراء      وداوني بالتي كانت هي الداء  
يُنظر: ديوانه (ص ٥٣).

وَقَالَ الْآخَرُ<sup>(١)</sup>:

كَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ      كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ  
وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلِفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ  
سَبْعَةَ وَتَقَالِي بِرَحْمَةِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ تُؤْثِرُ إِلَهَهَا أَزًّا، وَتُحَرِّصُهُ عَلَيْهَا، وَتُرْعِيهِ عَنْ  
قَوَائِمِهِ وَتَجْلِسُهُ إِلَيْهَا. وَلَا يَزَالُ يَأْلَفُ الْمُعَاصِي وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا، حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ  
إِلَيْهِ الشَّيَاطِينَ، فَتُؤْثِرُهُ إِلَيْهَا أَزًّا. فَالْأَوَّلُ قَوِيٌّ جُنْدُ الطَّاعَةِ بِالْمَدَدِ، فَضَارُوا مِنْ  
أَجْرِ أَعْوَانِهِ، وَهَذَا قَوِيٌّ جُنْدُ الْمُعْصِيَةِ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَانًا عَلَيْهِ.

## الشرح:

من آفات الذنوب أنها تجر إلى مثلها، فالمعصية تجر إلى معصية، كذلك فإن الطاعة تقرب إلى طاعة أخرى. فالعبد المحسن إذا ترك الطاعة ضاقت عليه الدنيا، وما تلذذ إلا بالطاعات، ولو منع منها فإنه يتحسر على فقدانها؛ لأن الطاعة تجر إلى الطاعة، بينما العاصي لا يرتاح إلا مع المعاصي، ولو أنه عمل طاعة لضاقت نفسه؛ لأن المعصية تجر إلى المعصية وتنفّر من الطاعة، وهذا مثل الذي يشرب الخمر فيصاب بالإدمان، والذي يشرب الدخان فيصاب بالإدمان ولا يستطيع أن يتركه.

وقوله: (سَيُخِجُ الْقَوْمَ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ)، يعني: شيخ الصوفية.

(١) عجز البيت من بيت مشهور لابن نباتة المصري في ديوانه (ص ١٩٩)، وصدره: «تداويت من الحماظة برضابه». ومن بيت مشهور لجسّون لبلى في ديوانه (ص ١٢٢)، وصدره: «تداويت من لبلى بلبل عن الهوى».



## فصل

ومنها: أنه يسليخ من القلب استغفارها، فتصير له عادة، فلا يستغفر من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه.  
وهذا عند أبواب الفسوق هو غاية التهلك وتكائم اللذة، حتى ينقصر آحادهم بالمعصية، ويجحد بها من لم يعلم أنه عملها، فيقول: يا فلان، عملت كذا وكذا.

وهذا الضرب من الناس لا يعاقون، وتسد عليهم طريق التوبة، وتلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل أمتي معاني إلا الجاهلون»، وإن من الإجهار أن يسر الله على العبد أنه يصح يفضح نفسه ويقول: يا فلان عملت كذا وكذا، فكذلك نفسه، وقد بات يسره ورثته<sup>(١)</sup>.

ومنها: أن كل معصية من المعاصي فهي ميراث عن أمه من الأمم التي أملاكها الله عز وجل. فاللطيفة ميراث عن قوم لوط، وأخذ الحق بالزنايد ودفعه بالنقص ميراث عن قوم شعيب، والعلو في الأرض بالفساد ميراث عن قوم فرعون، والتكبر والتعجب ميراث عن قوم هود.

فالمعاصي لا يس ثياب بغض هذه الأمم، وهم أعداء الله.  
وقد روى عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال: «أوصى الله إلى نبي من أنبياء نبي إسرائيل أن قل لقومك: لا تدخلوا مداخل

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

## فصل

ومنها - وهو من أخوفها على العبد -: أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوي إرادة العصية، وتضعف إرادة التوبة فتشينا إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات بضعة كما تاب إلى الله، فيأتي بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان يعني كبير، وقلبه ممتود بالمعصية، فيصير عليها، عازم على مؤاقعتها متى أمكنه.  
وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك.

## الشرح:

ومن عقوبات المعاصي أنها تؤثر في القلب فتضعف فيه إرادة الخير وتقوي فيه إرادة الشر، وهذا شيء معروف، فإن العصاة أثقل شيء عليهم الطاعات، وأخف شيء عليهم المعاصي؛ بالفنونا ولا يستريحون إلا بها وبمجالسها، وينفرون من مجالس الخير، وتنقل عليهم الطاعات، هذا شيء واضح فيهم، وهذه عقوبة لهم أن الله سبحانه وتعالى حرهم لذة الطاعة، وجعل فيهم شهوة المعصية، وذلك بسبب الذنوب بلا شك.  
وكذلك يحرمون الصدق في التوبة، فتضعف إرادة التوبة لديهم شيئا فشيئا، حتى إن أحدهم يستغفر الله بلسانه، ويكثر من الاستغفار والتوبة، وهو مقيم على المعصية ومصر عليها، وهذا لا تكون توبته صحيحة، إنما هي توبة باللسان فقط، وهذه لا تنفع؛ لأنها توبة الكذابين.





لأنهم ليس في قلوبهم أنفة وكرهية للمعاصي، أخذت منها هذه الأشياء بسبب كثرة الذنوب.

وقوله: (وَهَذَا الصَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافُونَ)، إذا بلغوا هذا الحد فإنهم لا يعافون من المعاصي، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْجَاهِلُونَ»، فالذين لا يستحيون من المعاصي لا يعافون منها، أما الذي يستحي فإنه يُعَافَى بِإِذْنِ اللَّهِ.

ومعنى المجاهرة: أن يتحدث الإنسان بالمعاصي التي فعلها؛ مفتخرًا بها وإن لم يفعلها علانية، لكن حديثه عنها وذكره لها فيه مجاهرة بالمعصية.

وقوله: (أَنَّ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِرْيَافٌ عَنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ)، كما يقال: لكل قوم وارث، فالذين يبخسون المكايل ويفشون الناس في المعاملات وارثون لقوم شعيب أصحاب مدین، والذين يفعلون في جريمة اللواط وارثون لقوم لوط، والذين يتكبرون على الناس ويتجبرون وارثون لفرعون وقوم عاد.

وقوله: (لَا تَدْخُلُوا مَسَاخِلَ أَغْدَاثِي) فيه النهي عن التشبه بالكفار والأشقياء في ملاسهم ومجالسهم وعاداتهم، وهذا كقولهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَشَبَّهَ يَقَوْمٌ فَهُمْ مِنْهُمْ»، فمن علامات حجة المعصية التشبه بأهلها.

وقوله: (يُعِثُّ بِالسَّيِّفِ) يعني: الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، (بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ) أي: قبل الساعة؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو آخر الرسل، وليس من بعده رسول تقوم الساعة، وبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات الساعة، (حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَخُدَّ لَا شَرِيكَ لَهُ) هذا هو الغرض من الجهاد: عبادة

أغداثي، وَلَا تَلْبَسُوا مَلَابِيسَ أَغْدَاثِي، وَلَا تَرْجُوا مَرَائِبَ أَغْدَاثِي، وَلَا تَطْعَمُوا مَطَاعِمَ أَغْدَاثِي، فَتَكُونُوا أَغْدَاثِي كَمَا هُمْ أَغْدَاثِي»<sup>(١)</sup>.

وفي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُعِثُّ بِالسَّيِّفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَخُدَّ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُيَلَّ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي، وَجُيَلَّ الدَّلَّةُ وَالصَّنَاؤُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ تَشَبَّهَ يَقَوْمٌ فَهُمْ مِنْهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

الشرح:

كذلك من عقوبات المعاصي: أنها تسلب الحياء من الإنسان، فلا يستحي من فعل المعاصي، ولا يعتبرها شيئاً يمان عليه، خلافاً للمؤمن فهو يستحي، وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»<sup>(٣)</sup>. فالحياء يمنع الإنسان من فعل الأشياء القبيحة، ومن لم يكن عنده حياء فإنه لا يأبى من قبحها ولا يراها شيئاً.

وقوله (حَتَّى يُنْتَجِرَ أَغْدَاثُهُمُ بِالْمَعْصِيَةِ) يفتخرون بالمعاصي، ويعتبرونها رجولة وتقدماً، وفيها للحياة، إلى غير ذلك من الأمور، ولا يعتبرونها معاصي؛

(١) لم أنف عليه في الطبع من الزهد للإمام أحمد، والذي فيه برقم (٥٢٣) من قول عقيل بن مدرك السلمي، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠/٢) واللفظه، وأبو دارود (٤٠٣١) مختصراً، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

## فصل

ومنها: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ سَبَبٌ هَوَّاءِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسُقُوطُهُ مِنْ عَيْنِهِ.  
قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «هَآؤُنَا عَلَيْهِ فَمَعْصُوهٌ، وَلَوْ عَزَّوَا عَلَيْهِ لَمَعَصَمَهُمْ» (١).  
وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُكْرَمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨]، وَإِنْ عَظَّمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ يُلَاحِظُهُمْ إِلَهُهُمْ أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَخْفَرُ شَيْءٍ وَأَعْوَنُهُ.  
وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْتَكِبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهْوَى عَلَيْهِ وَيَضَعُ فِي قَلْبِهِ، وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَاكِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّهُ صَغَرٌ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظِيمٌ عِنْدَ اللَّهِ.  
وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَغَدَابٍ وَقَعَ عَلَى أَتْقَاهُ، فَقَالَ بِهِ مَكَدًّا فَطَارَ» (٢).

## الشرح:

قد يفتخر العاصي بمعصيته، ويعتز بنفسه، ويرى أنه بلغ من الرقي والحضارة والتقدم الشيء الكثير، ولكنه حين عند الله جَلَّ وَعَلَا، ومن هو أنه أن الله تركه في المعصية، ولو كان كريماً على الله لكثرة إله المعصية، كما قال الله

- (١) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى (ص ١٨٤) عن الحسن البصري، وأخرجه الأجرى في الشريعة (٢/ ٩٦٩)، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٦١)، والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧) من كلام أبي سليمان الداراني.  
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

الله عز وجل: «لَأن الله خلق الناس لعبادته، فإذا تركوها وجب جهنم حتى

يرجعوا إليها.

وقوله: (وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي)، وهو الغنائم، فالغنائم حلال لهذه الأمة، وهي أحل شيء: ﴿تَكَلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]؛ لأنها أموال أعداء الله رجعت إلى أولياء الله، والله إنما خلق هذه الأموال لأهل الإيمان.

وقوله: (وَجُعِلَ الذُّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي) هذا شيء واضح أن المعصية فيها ذل، فكل من خالف الرسول صلى الله عليه وسلم ذليل وإن كان يرى أنه عزيز ويتظاهر بالعزة، إلا أنه ذليل في قلبه. فالأمر ليست بالمظاهر، وإنما هي بما في القلوب، فالعاصي ذليل في قلبه وإن ترفع وأظهر للناس أنه قوي، والمؤمن وإن ظهر للناس أنه فقير ومستضعف إلا أنه قوي عند الله، وقوي في قلبه بقوة إيمانه.



تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوُوا فِي دَعْوَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]. وقد يستعصر الإنسان الذنب والمعصية، وهي عظيمة عند الله جل جلاله.

وقوله: (إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَمُوتُونَ كُلُّهُمْ فِي أَهْلِ جَبَلٍ يَخْشَى أَنْ يَمُوتَ عَلَيْهِ)، المؤمن يخاف من المعاصي، وإذا فعل معصية تقلت عليه، وتلبى الله، ويرى كأنها جبل يخاف أن ينقض عليه، وأما الفاجر فعلى العكس يستخف المعاصي، ولا يراها شيئاً، كأنها ذباب وقع على أنفه فطار، لا يلتقي لها بالاً.



تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنْ أَجَبَ اللَّهُ يَسْعَى الْإِنْسَانُ وَزَيْنَهُ فِي فُلُوْهُكُمْ وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكَفَرُ وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ﴾ [المجمرات: ٧]. فأهل الإيمان يحب الله إليهم الطاعات، ويكره إليهم ضدّها، وأهل الشقاء بالعكس يحب الله إليهم المعاصي، ويكره إليهم الطاعات، ولو أكرمهم لمعهم من المعاصي، وشغلهم بالطاعات، لأن الله جلّ وعلا يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أما هذا الدين فلا يعطيه إلا لمن يحب.

وقوله: (وَإِنْ عَظَّمْتُمْ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ)؛ لأن الناس قد يعظمون صاحب المعصية لغرض من الأغراض، إما لطمع فيما عنده، أو خوفاً منه لجبروته، فهم يعظمونه في الظاهر لكنهم في قلوبهم يلعنونه ويحتقرونه، فليس تعظيم الناس للشخص دليلاً على أنه عظيم عند الله عزّ وجلّ إلا إذا كان على طاعة، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ قُلَامًا فَأَخْبِنِي، فَيَجِبُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ قُلَامًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَجِبُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبْرُ فِي الْأَرْضِ» (١).

فإذا كان هذا الشخص على طاعة فتعظيم الناس له في مكانه؛ لأن الله أحبه فهم يحبونه، وأما إذا كان على معصية فتعظيمهم إنما هو في الظاهر، وأما في الباطن فهم يحتقرونه.

وقوله: (أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يُزَكِّي الذَّنْبَ حَتَّى يَمُوتَ عَلَيْهِ وَيَضَعُ فِي قَلْبِهِ)، هذا كما سبق أنه يتهاون بالمعاصي، وتصير عليه سهلة ولا يستعيبها، قال الله

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

## فصل

ومنها: أن غيرة من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيعترف هو وغيرة بشؤم الذنوب والظلم.  
قال أبو هريرة: «إن البخاري كتموت في وكبرها من ظلم الظالم»<sup>(١)</sup>.  
وقال مجاهد: «إن النجاشي تلعن عصاة بني آدم إذا استندت السنة، وأمسك الظلم، وتقول: هذا يشؤم مني آدم»<sup>(٢)</sup>.  
وقال عكرمة: «قوارب الأرض وهو أنها حصى الخنافس والعقارب، يقول: شيعنا القطر يثوب بني آدم»<sup>(٣)</sup>.  
فلا يخفى عقاب ذنبه، حتى تبلغته من لا ذنب له.

## الشرح:

أخبار طائر معروف، قد غورت في وكبرها من الجوع بسبب ظلم الظالم، فهي لم تفعل شيئاً، لكن ظلم الظالم كان سبباً في هلاكها، ولهذا يقول العلماء في خسر قوله تعالى: ﴿أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللعنون﴾ [البقرة: ١٥٩]. إن اللعنين هم الدواب والطيور، تقول: إنها خرمنا الرزق بسبب ذنوب بني آدم.



- (١) أخرجه الطبري في تحبيره (١/٢٦٦)، والبيهقي في الشعب (٥٤٤/٩).
- (٢) أخرجه الطبري في تحبيره (٥٤٤/٢)، وابن أبي العنقبات (٢٧١).
- (٣) أخرجه الطبري في تحبيره (٥٥٢/٢).

## فصل

ومنها: أن المعصية ثورث الملأ ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿من كان يريد العزة فَلْيَعِزَّهُ بِاللَّهِ الْعِزَّةُ كُلُّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ﴾. فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجتمع إلا في طاعة الله.  
وكان من ذنوب بغضي السلف: «اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك»<sup>(١)</sup>.  
قال الحسن البصري: «إنهم وإن طلقوا بسم البغال، وتماثلت بهم البراري، إن ذل المعصية لا يقارن قلوبهم، كفى الله إلا أن يذل من عصاه»<sup>(٢)</sup>.  
وقال عبد الله بن المبارك: «الذنوب»<sup>(٣)</sup>.

رايت الذنوب تبيت القلوب  
وترك الذنوب حياء القلوب  
وهل أفسد السوء إلا الملوك  
وأخسر مسرور ذوقها

## الشرح:

ومن آثار المعاصي: أنها ثورث المعصية، قال الله تعالى: ﴿من كان يريد العزة فَلْيَعِزَّهُ بِاللَّهِ الْعِزَّةُ كُلُّ الْعِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ﴾. فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجتمع إلا في طاعة الله.  
وكان من ذنوب بغضي السلف: «اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك»<sup>(١)</sup>.  
قال الحسن البصري: «إنهم وإن طلقوا بسم البغال، وتماثلت بهم البراري، إن ذل المعصية لا يقارن قلوبهم، كفى الله إلا أن يذل من عصاه»<sup>(٢)</sup>.  
وقال عبد الله بن المبارك: «الذنوب»<sup>(٣)</sup>.

- (١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥٥/٢) من كلام جعفر الصادق.
- (٢) تقدم تخريجها (ص ٢١٢).
- (٣) ذكره ابن عبد البر في جملة الحسن (ص ٢٤٦).



## فصل

ويتمها: أن المعاصي تُسبب العقْل، فإن للعقل سورة، والمعصية تُطْفئ سورة العقل ولا بُدَّ، وإنا طمِعُ سورة صَعَفَ وَتَقَصَّ.

وقال بغض السلب: ما عصي الله أحد حتى يغيب عقله. وهذا ظاهر، فإنه لو حُفِرَ عقله كحجرة عن المعصية، وهو في بقية الرُبِّ تعالى، أو تحت قهْرٍ، وهو مُطْلَعٌ عليه، وفي دأره على بساطه، وتلاجه شهود عليه فيظرون إليه، وأعطى القرآن بنهائه، وأعطى الإيمان بنهائه، وأعطى النور بنهائه، وأعطى النار بنهائه، والذي يوقئهُ بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أختلاف ما يحصل له من الشُرور واللذة بها، فهل يُقدِّم على الانتهاء بذلك كله ولا يبتغيه؟ به ذو عقل سليم؟!

## الشرح:

ومن آثار المعاصي أيضاً: أنها تُسبب العقل الذي ميز الله به الإنسان على غيره، فإذا فسد العقل أصبح يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وتنعكس عليه الأمور.

فالمعصية لديهم عقول ولكنها فاسدة، فتكون مثل عقول الجاهل، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ (الأنعام: ١٢٥)؛ لا يسمعون عقولهم، وليس لديهم عقول تيرة وصيرة.

وقوله: ﴿فَإِنَّهُ لَوْ حَفَرَ عَقْلُهُ كَحَجَرَةٍ عَنْ الْمَعْصِيَةِ﴾، أو يبداه على فعلها

الدعوة بعير طاعة الله عز وجل، فاطاعة عزه، والمعصية ذل، وإن كان أصحابها يرون أنها عز، ولو كانت مظاهرهم قوية، ويرون المراكب الفخمة، ويلبسون اللابس البراقة، ويسكنون القصور، لكن قلوبهم ذليلة، أذلهم الله سبحانه وتعالى فهدوا حتى عند أنفسهم، فصاروا في هوان وذل، وإن كانوا عديم مظاهر فلا تسمعهم.

وقوله: ﴿وَقُلْ أَتَسْتَعِينُونَ إِلَّا الْمُلُوكَ﴾، يعني: الظلمة منهم، وليس كل ملك ظالم، فليسوا جميعاً من الملوك، ويوسف نقيباً لكثرة من الملوك، فليس كل ملك يكون مثلاً للدين، ولكن الملوك الفجرة هم الذين يقسدون الدين، أما الملوك الصالحون فيهم يصلحون الدين.

وقوله: ﴿وَأَكْبَرُ شُورًا﴾، يعني: علم السوء الذين يقتول الناس بالجهوى والشهوات، فيفسدون الدين بهدا، خلاف علماء الحق، فهؤلاء يصلحون الدين.







## فصل

وَمِنْهَا: أَنَّ الذُّنُوبَ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ كَفَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ لَعَنَ عَلَى مَعَاصِي، وَالتَّيَّ غَيْرَهَا أَكْبَرُ مِنْهَا، فَبِمَا أَوَّلَى بِدُخُولِ قَاعِهَا تَحْتَ الدَّعَةِ. فَلَعَنَ الرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ، وَالرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ، وَالرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ، وَالرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ. (١)

وَلَعَنَ أَكَلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيهِ. (٢)

### الشرح:

هناك معاصي لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فعلها، يعني: دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللعة، وهي: الطرد والإبعاد من رحمة الله، فكل من وقع في هذه المعاصي التي عليها اللعن أصابته هذه اللعة.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن على معاصي معروفة، فَلَعَنَ الرَّائِصَةَ

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَلَعَنَ اللَّهُ الرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ، وَالرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ. أخرجه البخاري (٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤).

وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: وَلَعَنَ اللَّهُ الرَّائِصَاتِ وَالْمُسْتَوِصَاتِ، وَالْمُسْتَوِصَاتِ وَالْمُسْتَوِصَاتِ، الْمُتَعَرِّضَاتِ خَلْقَ اللَّهِ، مَا لِي لَا أَلْعَنُ مِنْ كَفَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ. أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥). وفي رواية عند أحمد (٤١٥/١): «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ الرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ وَالرَّائِصَةَ وَالْمُسْتَوِصَةَ إِلَّا مِنْ دَاءٍ».

(٢) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: وَلَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكَلَ الرِّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيهِ. أخرجه مسلم (١٥٩٨).

والذنب بعد الذنب يسبب الرآن، وهو الغلاف الذي يكون على القلب

فيحجب عنه نور الإيمان.

وقوله: (وَأَصْلُ مَهْدَاً أَنَّ الْقَلْبَ يَصْدَأُ مِنَ الْغَصِيَّةِ) أول شيء أن يتأثر

القلب ويمرض، ثم يزيد به المرض حتى يموت، وإذا مات قلبه صار ما فيه

فائدة، وإن كان جسمه حي وقوي، لكن قلبه ميت.

❦ ❦ ❦ ❦ ❦